

الولاء والمعارضة لمذهب السلطة الموحدية  
فقهاء المغرب الأوسط أنموذجا

د. كراز فوزية

قسم العلوم الإنسانية

كلية العلوم الإنسانية و الإجتماعية

-جامعة معسكر-

**Abstract:**

In the 12<sup>th</sup> century, Abd al-Mu'min Ibn Ali (1094–1163) established the Almohads State in the Islamic Maghreb, the spiritual leader of this politico-religious movement Ibn Tūmert (1080–1130) preached for a new doctrinal school among the Berbers most of them Mliki followers. The opposition of the Maliki scholars was not very clear in the early period. By the rule of the 3<sup>rd</sup> Caliph, Abū Ya'qūb Yūsuf; (1135 – 1184), and the revolt of Banu Ghaniya, some of the Maliki scholars shown their opposition to the movement of Ibn Tūmert known as Monotheism /Unitarianism (Tawhid).

According to my historical enquiry, the most of the Maliki scholars of the central Maghreb (Algeria) were powering the Almohads Caliphate because they participated in the administration system such as education, legislation system and mosques management...

1 تقديم: فحوى الدعوة الموحدية

اعتبر ابن تومرت داعي الدولة الموحدية صاحب مشروع ديني إصلاحي مخالف لما كان عليه الوضع الفقهي بالمغرب الإسلامي؛ إذ دعا في مجالسه العلمية إلى محاربة فقه الفروع موجهة الاهتمام بالأصول والعقيدة بالعودة إلى الكتاب والسنة لاستنباط الأحكام، وتجلى ذلك في رجوعه إلى الأصول بالاعتناء بالقرآن والحديث واختصاره لموطأ الإمام مالك بحذف الأسانيد لتسهيل حفظه من قبل الطلبة وجعله مصدرا لفقه العبادات، ودليل ذلك بعض الأحكام الواردة في كتابه أعز ما يطلب<sup>1</sup> وبالتالي استنباط الأحكام الفقهية لا تكون إلا من الكتاب والسنة والإجماع<sup>2</sup>. ولا شك أنه طرح في مجالسه العلمية ضرورة موافقة المذهب المالكي في حجية عمل أهل المدينة قائلا: «فكل ما نقل أهل المدينة وكان عملهم عليه متتابعا فهو صحيح، والدليل على ذلك أن الإسلام والشرائع والرسول والصحابة إنما كانوا في المدينة»<sup>3</sup>، واستبعد القياس كأصل من أصول الأدلة لذا اعتبرته بعض المصادر<sup>4</sup> ظاهري المذهب\*. فقد ذكرت إحداها قائلة أن «ملوك الموحدين قد تحلوا بالمذهب المعروف لهم من إنكار الرأي في الفروع الفقهية،

والعمل شرعا على محض الظاهرية، وجروا على ذلك سنين بطول إياهم إلى أن انقضوا، أولهم في ذلك مهديهم أول ملوكهم»<sup>5</sup>.

كما جعل ابن تومرت العلم وفي أعلى درجاته أي علم التوحيد أو ما يعرف بعلم الكلام\* فرضا على عامة الناس، وأنه أول ما يجب تحصيله، بل قال بوجوب تقديمه على العبادات<sup>6</sup>. ومن يقرأ مجموعته المسمى أعز ما يطلب، يجد الكثير من موضوعاته كلامية صرفة، أي لا يخوض فيها ويفهمها إلا المتمرسين بعلم الكلام ومع ذلك ألزم الناس بقراءته<sup>7</sup>. وإن كانت بعض مجالس العلماء «مشحونة بالخاصة من أولي التمييز والمروءة»<sup>8</sup>، فقد جرّ ابن تومرت العامة إلى ذلك أيضا، وهذا أمر طبيعي لأن علم الكلام هو مجال يلتقي فيه الدين بالسياسة وهو الطريق الذي يدخل منه العوام إليها والانشغال بها وهذا ما رفضه ابن رشد<sup>9</sup>، ولهذا فإن المشروع التومرتي القائم على ربط العوام في نظام محكم حول عقيدة صارمة هو مشروع فاسد من الأساس بحسب منطق ابن رشد، لأنه حطم الحاجز الضروري في نظره القائم بين العامة والعلم<sup>10</sup>.

## 2-فرض مذهب التوحيد بالمغرب الأوسط:

كان هذا فحوى دعوة المهدي بن تومرت وما لقنه في مجالسه العلمية، فإلى أي مدى تقبل فقهاء المغرب الأوسط ما دعا له المهدي؟ خاصة إذا ما علمنا أن أتباعه كثرت «وحسنت ظنون الناس به»<sup>11</sup>. وفي اعتقادنا أن رباط ملالة بيجاية أول مجلس علمي<sup>12</sup> للداعية المهدي بن تومرت لبث أفكاره وعلمه «فعمّر مجلسه الطلبة والصالحون»<sup>13</sup>، وبالتالي كان هذا المجلس بداية لتأسيس دعوة التوحيد بالمغرب الإسلامي والمغرب الأوسط خاصة، وبه التقى مع حامي الدعوة ومؤسس الدولة عبد المؤمن بن علي. ولنشر الدعوة على أوسع نطاق أمر ببناء مسجد مهدوم بمنطقة الأحماس بضواحي متيجة فكان له ذلك<sup>14</sup> وأثناء تقدمه أمر بعمارة مسجد كان معطلا بمنطقة حساس أن مرمرور القريبة من مليانة فعمّر<sup>15</sup>. وأمر ببناء مسجد بمنطقة تينملت متاع بني يزناسن بقرب من الشلف<sup>16</sup> كما كان له رباط بتلمسان تداول عليه طلبته وأصدقائه كعبد الواحد بن عمر التونسي من فقهاء افريقية وبعد وفاته خلفه عبد المؤمن بن علي<sup>17</sup>.

مشروع ابن تومرت وجد استمرارية عند خليفته عبد المؤمن بن علي وأبنائه، تجسد في اهتمامهم بنشر التعليم فشيّدوا لأجل ذلك جملة من المدارس بالمغرب الإسلامي، فأشار ابن أبي زرع الفاسي وهو يذكر إنجازات الخليفة أبي يوسف قائلا: «بنا المساجد والمدارس في بلاد افريقية والمغرب والأندلس»<sup>18</sup>. في حين لم تذكر المصادر ولا الدراسات مخلفات معمارية موحدة<sup>19</sup> بهذا الشأن بالمغرب الأوسط، إذا ما استثنينا المساجد كمراكز تعتمد السلطة عليها لتمرير الأفكار السياسية والمذهبية

ويبدو واضحا أن السلطة حددت سلفا الأهداف الحقيقية لبناء المدارس<sup>20</sup> لذا أسس عبد المؤمن بن علي معهدا لطبقة الحفاظ متكونة من صبيان صغار السن من أبناء اشيلية وقرطبة وفاس وتلمسان<sup>21</sup> ومن المصامدة وغيرهم بلغ عددهم «نحو ثلاثة آلاف كأنهم أبناء ليلة»<sup>22</sup>. ووقف عليهم حفظ "كتاب الموطأ" وكتاب أعز ما يطلب وغير ذلك من تأليف المهدي بن تومرت<sup>23</sup>،

وربما المنهج الدراسي الذي وضعه عبد المؤمن بن علي لطبقة الحفاظ أراد به تكوين إطارات قديرة ذات كفاءة عالية<sup>24</sup>، ملّمة بالأفكار الأساسية للدعوة الموحدية، فاحتلوا الوظائف الكبرى «فعل بهم أشياخ المصامدة عن ولاية الأعمال والرئاسة وقال العلماء أولى منكم فسلموا لهم وأبقاهم معهم في المشورة»<sup>25</sup>.

هذا وقد عمّ الخليفة نظام تعليم التوحيد على جميع سكان المغرب الأوسط، يظهر ذلك في رسالة الفصول الموجهة من قبل الخليفة عبد المؤمن بن علي إلى أهل بجاية سنة 556هـ/1162م أمرا طلبة المدينة بأخذ الناس بعلم التوحيد الذي اعتبره أساس الدين وكل من يفهم اللسان الغربي (البربري) أن يقرؤوا التوحيد به مع ملازمة ذلك، كما ألزمت العامة بقراءة العقيدة التي أولها «أعلم أرشدنا الله وإياك» مع حفظها وتفهمها<sup>26</sup>، كما «أشمل في هذا الإلزام الرجال والنساء والأحرار والعبيد وكل من توجه عليه التكليف، إذ لا يصح لهم عمل ولا يقبل منهم قول دون معرفة التوحيد»<sup>27</sup>، وبالتالي نشعر من قرارات الخليفة هذه أنها سياسية أكثر منها حركة علمية، بل وأقحم العبيد في ذلك وهو أمر مرفوض عند بعض فقهاء المالكية، إذ يرون العبيد لا يدخلون في خطاب الأحرار<sup>28</sup>.

إلا أن مذهب الدولة الموحدية سيعرف تغيرا مع ثالث خليفة في الدولة أبي يوسف يعقوب المنصور؛ بحيث أحدث تغيرا كبيرا في المجال الفقهي لابن تومرت وعبد المؤمن بن علي التبروي، وفي الكتب التي فرضت على العامة لقراءتها وحفظها؛ فحمل الناس على المذهب الظاهري وأحرق كتب المالكية، مع أن الفكرة راودت والده وجده، كما أشار إلى ذلك مؤرخ الدولة فيقول «وهذا المقصد بعينه كان مقصد أبيه وجده إلا أنهما لم يظهرهما وأظهره يعقوب هذا»<sup>29</sup>. ويقصد بذلك النية التي راودت عبد المؤمن بن علي سنة 555هـ/1161م وعنهما علق ابن أبي زرع قائلا:

«أمر أمير المؤمنين.... وتحريق كتب الفروع ورد الناس إلى قراءة الحديث، وكتب بذلك إلى جميع طلبة المغرب والعدوة»<sup>30</sup>، ويفهم من مضمون النص أن الأمر لم يدخل حيز التنفيذ ولو وقع فعليا لكان جدير بالتصريح به في المصادر. وفي إشارة صريحة أنه لما استقام الوضع لعبد المؤمن بن علي «جمع الفقهاء إما لاختبارهم عن مذهبهم أو على أن يحملهم على مذهب ابن حزم... قوم من أولي العلم تركوا كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام وصاروا يتحكمون بين الناس ويفتون بهذه الفروع والمسائل التي لا أصل لها في الشرع...»<sup>31</sup>.

وبناء على ما تقدم يبدو واضحا أن عبد المؤمن بن علي أول من أمر بضرورة الحرق، ثم رأى أنه سابق لأوانه<sup>32</sup>، وربما في تراجع هو خوفا من أثره الخطيرة على الأنفس<sup>33</sup>، في حين طبّق الأمر على أرض الواقع بقرار من الخليفة المنصور، فأحرق جملة من كتب المذهب في سائر البلاد مدونة سحنون، كتاب ابن يونس، نوادر ابن أبي زيد

ومختصره، كتاب التهذيب للبرادعي، وواضحة ابن حبيب السلمي، وأمر العلماء بجمع الأحاديث من المصنفات العشرة الصحيحين، الترميذي، الموطأ سنن أبي داود، سنن النسائي، سنن الزوار، مسند ابن أبي شيبة، سنن الدارقطني، سنن البيهقي الخاصة بالصلاة وما يتعلق بها فكان له ذلك<sup>34</sup>. وأمر الخاصة والعامة بجميع بلاد المغرب بحفظه، بل وجعل مكافأة متمثلة في السني من الكساء والأموال لمن حفظه<sup>35</sup>، فانقطع بذلك علم الفروع وخافه الفقهاء<sup>36</sup>. وإن فصلت المصادر في ظاهرة المنصور<sup>37</sup> وحرقة لكتب الفروع، تبقى هي الأخرى حقيقة مشكوك في أمرها بوجود نص آخر منافيا مفاده أنه لما حمل الخليفة الفقهاء والعامة بالدولة على كتب ابن حزم عمل الفقيه أبو يحيى بن المواق على جمع المسائل المنتقدة على ابن حزم كان يجهلها الخليفة، ولما أتم عمله جاء إليه بدفتره، ولما قرأها عليه قال: «أعوذ بالله أن أحمل أمة محمد صلى الله عليه وسلم على هذا وأثنى على ابن المواق... فظهرت بعد ذلك الفروع وقويت»<sup>38</sup> وفي إشارة لياقوت الحموي أن العوام والعمى ببجاية كانوا يحفظون على ظهر قلب كتب البخاري والمدونة والموطأ والتلقين، ويشرحونها للناس من ذكرتهم<sup>39</sup>.

### 3- تباين مواقف فقهاء وشيوخ المغرب الأوسط اتجاه مذهب السلطة:

تباينت مواقف فقهاء المالكية وشيوخ الإباضية بالمغرب الأوسط اتجاه مذهب التوحيد للسلطة الموحدية، فعرف عن بعضهم ولأئهم لها، فعينوا خطباء وقضاة ومفتين ومحدثين من قبلها، ومنهم من رفض الخضوع، بل دخلوا مع السلطة في مجادلات علمية بل وسياسية. ليتضح ذلك نسلط الضوء على نماذج من العينيين.

أ - مواقف موالية:

نكاد لا نجد نصوص تاريخية في الفترة المتقدمة عن موقف الفقهاء اتجاه السلطة، ولم تتضح إلا مع ثالث خليفة لما يعلن عن اتخاذ المذهب الظاهري كمذهب رسمي للدولة، فتوافق هذا مع جنوح عدد من فقهاء المغرب الأوسط لهذا التيار الفقهي الأمر الذي مكنتهم من تولي المناصب.

لم يكن علم الكلام<sup>40</sup> غريب عن طالبي العلم ببجاية والمغرب الأوسط عامة، بدء بانتشار كتاب إحياء علوم الدين للغزالي بالمغرب الإسلامي، ثم بالمبادئ التي نشرها المهدي بن تومرت في أوساط العامة الملتفة حوله في مختلف المدن والقرى التي مرّ بها بالإقليم، وكذلك من قبل خليفته الذي أمر بقراءة مؤلفاته التي سبق الإشارة إليها في التعليم النظامي. والجدير بالتنبيه أن من جلس للأستاذية بالجامعين الأعظم وجامع القصبة بمدينة بجاية كان مضمون حلقاته العلمية لا تتعارض والتأصيل الفقهي التي نادى به السلطة الموحدية، من بين هؤلاء أبو علي حسن المسيلي (ت 580هـ/1184م) الذي التقى مع مذهب السلطة في اهتمامه بعلم الكلام، فألف فيه كتاب أسماه «التفكير فيما تشتمل عليه السور والآيات من المبادئ والغايات» سلك فيه مسلك أبو حامد الغزالي في كتابه الإحياء، وبه سمي أبو حامد الصغير، وهو كثير الوجود بين أيدي الناس، وكثرة وجود الكتاب دليل على اعتناء الناس به وإثرائهم له<sup>41</sup>، ويكون بذلك غطى شهرته شهرة الإحياء للغزالي، لهذا التف حول الطلبة بالجامع الأعظم

للاستفادة من علمه مع الحرص على توجيهه لهم في أمور دينهم<sup>42</sup> كما عمل بالمذهب الظاهري وعنه ألف كتاب " النبراس في الرد على منكر القياس" وبه تمسك طلبة هذا المذهب<sup>43</sup>.

وبالتالي لم يكن الخليفة المنصور أول من أقر المذهب بالمغرب الإسلامي، ولم يكن له الفضل في نشره بالمغرب الأوسط، وإنما سبق في ذلك من خلال مؤلف أبي علي المسيلي السابق الذكر، ومن خلال جنوح البعض لهذا المذهب أمثال أبو محمد عبد الكريم الأزدي الملقب بابن يبيكي القلعي من ق 7/هـ 13م فنال مكانة رفيعة عند خلفاء الدولة الموحدية، "فكان مرجع الفتيا وبقوله يتم العمل"<sup>44</sup>.

ولما أعلن الخليفة المنصور التحول في المذهب من التوحيد إلى الظاهري، عمل على تغيير معالم الدولة في المذهب من حيث الإفتاء والقضاء وعلماء مجلسه العلمي، فعمل على استقطاب حملة المذهب، من ذلك قرب إليه الفقيه أبو عبد الله محمد بن مروان الهمداني -تعلم ونشأ بتلمسان ومال إلى الظاهر-، الذي أكثر من مطالعة كتب ابن حزم الأندلسي فاشتهر بالظاهرية، وصادفت شهرته إشهار الخليفة للمذهب الظاهري<sup>45</sup>. فأخذ خطيباً؛ إذ كان "يخطب عند المنصور في محافل الوفود ومشاهد الجماهير قياماً بالمصالح وإعراياً عن الأغراض والمقاصد"<sup>46</sup> في قصيدة انتقينا منها الأبيات التالية<sup>47</sup>، مدح فيها الخليفة في تحوله إلى المذهب المذكور بقوله:

أَسْرِيحُنَا يَا بَنِي الْإِمَامِ بِنِي أَمْرِكُمْ      مَرُوطٌ بِأَمْرِ اللَّهِ مَا عَنْهُ مُمْ عُلُ  
نَصَرْتُمْ لِأَنَّ الْحَقَّ آنَ ظُهُورُهُ      وَنَاصِرُهُ فِي اللَّهِ مَا كَانَ يُحْدَلُ  
قَطَعْتُمْ فُرُوعًا قَدْ أَضْرَبَتْ بِأَصْلِهِا      أَلَا هَكَذَا مَنْ كَانَ بِلِيلِ عِلٍ يَشْمَلُ

فتولى بذلك قضاء الجماعة سنة 582 هـ/1186م، وعزل منها سنة 592 هـ/1198م<sup>48</sup>. وفي رواية أخرى سنة 583 هـ/1187م<sup>49</sup>. هذا ولم تعطينا المصادر التاريخية سبب العزل.

وقد كان التحديث أكثر خطط أبو عبد الله محمد بن صمغان القلعي (ت بداية ق 7/هـ 13م) من قبل السلطة مما يؤكد أن السلطة تعين مواليها من الفقهاء أساتذة<sup>50</sup>، كما كانت له مجالس علمية أخرى حرة بعلو سقيفة داره يجتمع إليه خواص الطلبة<sup>51</sup>، ونعتقد أنه من صنف المعلمين الذين ارتفعوا عن تعليم أولاد العامة إلى أولاد الخاصة<sup>52</sup>؛ إذ كان «يقرأ عليه السيد أبو الحسن ابن عبد المؤمن الموطأ قراءة تفهم»<sup>53</sup> ولهذا الأمر دلالة على توافقه والاتجاه الفقهي لسلطة.

ولا شك أن أبا عبد الله محمد الأصولي هو الآخر برز في علم الكلام، وكان موضوع حلقاته العلمية بيجاية، لأنه كانت له دراية بالعلوم الفلسفية القديمة<sup>54</sup> وعلى علم بالخلافات\* والجدل<sup>55</sup> هذا ما جعل الخليفة المنصور يستدعيه للمشاركة في مجالسه العلمية<sup>56</sup>.

وكان شيوخ المذهب الإباضي ضليعون في علم الكلام، وفيه تقاطعوا بمذهب السلطة الموحدية، فقد ألف أبو يعقوب بن إبراهيم السدراتي (ت 570 هـ/1174م)<sup>57</sup> كتاباً بعنوان "الدليل والبرهان"، بحث فيه علم الكلام يقارن هـ

بين أقوال الإباضية والفرق الإسلامية الأخرى<sup>58</sup>. ومن أصحاب الآراء الكلامية الشيخ أبو عمار عبد الكافي الوردجاني (ت 570هـ/1174م) ظهر ذلك في كتابه " الموجز "<sup>59</sup> ومن هذا المنطلق فإن وارجلان التي اعتبرت إقليميا إباضيا صرفا، قبلت دعوة الموحدين بسهولة لالتقاءهما في مسائل الكلام والتوحيد، لهذا حمل الداعية العيتروسي على عاتقه نشر الدعوة الموحدية بالإقليم<sup>60</sup>، فاستجاب أهلها ودخلوا في طاعة الدولة وكانت الإجابة كذلك لأسباب أخرى أهمها ما عرف عن حملة المذهب الإباضي من التسامح والمسالمة والجدال الفقهي والفلسفي<sup>61</sup>. بل وأوجدت السلطة علاقة وطيدة بين الخلفاء وشيوخ المذهب بحيث قرب الخليفة يعقوب المنصور الشيخ أبو يحيى زكريا بن صالح اليراسني ( كان حيا 580هـ/1184م)، لما عرف عنه من عدل وصلاح منذ أن كان وزيرا، وازداد حظوة عنده بعد أن أصبح خليفة<sup>62</sup>. وعليه نكاد نجزم على أنه يعود الفضل في نشر وتعليم علم الكلام بالمغرب الأوسط لحملة المذهب الإباضي إضافة إلى فقهاء المالكية سابقو الذكر أي قبل الوجود الموحد على أرض الإقليم.

وطويلة هي قائمة علماء المغرب الأوسط ممن استدعتهم السلطة في مناصب مختلفة راقية بمناطق أخرى من المغرب الإسلامي وبولايات الأندلس، مما يعني أنهم شاركوا في تسيير شؤون الدولة. كما عوّل الخلفاء على بعضهم في إثراء مجالسهم العلمية، فهذا أبو عبد الله محمد بن الحجام (558هـ - 614هـ) استقدمه المنصور إلى مراكش فبال حظوة عنده وعند الناصر وبعده المستنصر، وهذا نتيجة معرفته بالأدب والشعر وغزارة الحفظ، ولأنه كان واعظ زمانه عين واعظا بالجامع الأعظم بأشبيلية إلى أن وافته المنية هناك وبالتالي كان لعلماء المغرب الأوسط دور هام وريادي في الرقي بحضارة الموحدين.

ب: مواقف المعارضة

تجلت بوضوح معارضة فقهاء المالكية بالمغرب الأوسط للسلطة الموحدية في مساندتهم للغزو الميورقي لمدينة بجاية، ولو أن مساندة فقهاء المالكية بالمدينة للدخلاء متوقعة؛ إذ يرجع ذلك إلى غيرتهم على المذهب السني المالكي، وإن كان مذهب الموحدين هو الآخر سنيا في ميدان التشريع<sup>63</sup>. بل هناك من يعزى نجاح بنو غانية في احتلالهم لبجاية الموحدية والدولة في أوج قوتها إلى مساندة الرأي العام المتأثر بعلماء المذهب المالكي<sup>64</sup>، فكان الفقيه المحدث أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الأزدي الإشبيلي<sup>65</sup> خطيبهم في أول جمعة صلاها علي ابن إسحاق بن غانية ببجاية، وفيها خطب لبني العباس، وقد كان سابقا يتعفف عن المناصب السياسية كالقضاء والخطبة للسلطة الموحدية بحكم اتجاهه الزهدي، وهذا ما أكده ابن الزبير «ودعي ببجاية إلى خطبي القضاء والخطابة للموحدين فامتنع عن ذلك وأبى، ودعي إلى ذلك حين دخلها الميورقي فأجاب وكان ذلك سبب امتحانه عند خروج الميورقي عنها ورجوعها للموحدين»<sup>66</sup>. ولا يفسر تعففه عن المناصب في السلطة الرسمية وقبولها في

حكم بني غانية إلا باستيائه من الحكم الموحدية<sup>67</sup>، ولذلك أباح الخليفة يعقوب المنصور سفك دمه، إلا أنه توفي في فراشه بعد التعذيب<sup>68</sup>

وكان من جهته القاضي الشريف أبو الطاهر عمارة<sup>69</sup> « ممن امتدحهم - بنو غانية- وأنشد بين أيديهم وربما تعرض في بعض مقاله جريا على عادة الشعراء أمثاله»<sup>70</sup>، واعتقل بعد دخول الجيش الموحدية للمدينة من جديد، وبقي كذلك مدة من الزمن "فكتب بقصيدة للوالي فتلقاها بالقبول وشفع فيه وفي أصحابه"<sup>71</sup>، وكثر هم علماء بجاية ممن ساندوا بني غانية حتى وإن لم ترد المصادر أسمائهم، يظهر النص التالي ذلك بعد استرجاع القوات الموحدية المدينة «فاشدت وطأتهم على أهل العلم واعتقلوا أناسا منهم»<sup>72</sup>.

ولم تستطيع الإجراءات التي قام بها الموحدون ضد فقه الفروع من إحراق للمدونة وكتب أخرى ومتابعة لبعض الفقهاء، من أن تهمش المذهب المالكي أو تقلص من مكانة فقهاءه، كما لم تؤد إلى التراجع عن التقاليد العلمية التي أرساها هؤلاء منذ استقرار المذهب بالمغرب الإسلامي سواء على مستوى التدريس أو التأليف أو الفتوى أو القضاء<sup>73</sup> بل هناك من كان يحفظها عن ظهر قلب، فكان أبو الحسن الحرالي التجيبي (ت 637هـ/1241م) «لا يفتقر في مواعيده إلى مطالعة ولا مراجعة شيء لإحاطته وتحصيله جميع ما صنفه من كتب ما كان يراجع فيه كتابا...»<sup>74</sup>. مما يؤكد شدة الملازمة لها وأهميتها في الحركة الفقهية وفي عملية الإفتاء في الفروع، عالما بأصول الدين وأصول الفقه، ذا معرفة بكتب الفروع حتى كان يضع مقارنة بينها، فكان إذا قرأ التهذيب يبين أنه مخالف لأصل المدونة، ويقاس بينهما لإخراج التخالف\*.

وكان لأبي الحسن الزيات مجلس علم ببجاية، وانفتح الناس بعلمه ودينه، ومن الكتب التي كانت تقرأ عليه التهذبية والتلقين والجلاب ورسالة بن أبي زيد القيرواني<sup>75</sup>.

ولا شك أن فقهاء هذا الاتجاه لقوا معارضة من قبل الفقهاء الموالين للسلطة، في هذا السياق لقي عبد الحق الاشيلي (510-582هـ/1117-1186م)<sup>76</sup> نكتا على كتابه الأحكام الصغرى في الحديث من قبل مزوار\* الطلبة أبو عبد الله بن القطان بالمغرب، مع أنه تلقى ردا وإصلاحا من غيره<sup>77</sup>، وهي دلالة على انتشارها بالمغرب الإسلامي على الرغم من أنها لم تلق استحسان السلطة الموحدية. وللإشارة أن مؤلفيه الأحكام الكبرى والأحكام الصغرى في الحديث كانا أكثر تداولاً بين أيدي الناس، بل وقرأت مع غيرها من تأليفه عند قبره من قبل الطلبة<sup>78</sup>. ولم ينته الحد عند التأليف والتدريس، فهناك من أدخل مؤلفات خاصة بالمذهب وفروعه لبلاد المغرب، فقد كان أبو القاسم عبد الرحمن بن السطاح الجزائري (ت 629هـ/1232م) أول من أدخل كتاب " الأنوار في الجمع بين المنتقى والاستذكار"\* إلى عدوة المغرب في نسخة بخط يده<sup>79</sup>.

لكن يبدو واضحا أن الخليفة المنصور كان مرنا مع بعض مخالفه في الرؤى المذهبية، فمن الدلائل على عدم شدته في ظاهره، أنه لم يتخذ موقفا صارما ضد الفقيه أبو زكرياء الزواوي (611هـ/1214م) لما بلغه من بعض

أصحاب الميول الحزمية عن تأليفه كتاب "حجة الأيام وقدوة الأنام" معارضا فيه أفكار ابن حزم ، فبعث إليه هذا الأخير الفقيه أبو محمد عبد الكريم الحسني لتوضيح آراء التي عرضت في الكتاب أمام مجلس الخليفة وبحضور الفقهاء، فما كان من الخليفة أن قال: يترك هذا الرجل على اختياره ، فإن شاء لعن وإن شاء سكت<sup>80</sup> . ولم يكن توافق الفقهاء مع مذهب الدولة الموحدية عاملا يمنع المعارضة لها؛ وإن أشرك الخليفة المنصور الفقيه أبو عبد الله محمد الفهري الأصولي من أهل بجاية ( ت 621هـ/1224م )-السابق الذكر- في جلساته العلمية وتولى قضاء مرسية واستخلفه بمراكش وولاه قضاء بجاية ثلاث مرات وصرف عن آخرها سنة 608هـ/1211م.<sup>81</sup> فلم يمنعه هذا من مواجهة الخليفة؛ إذ عرف بطبعه الحاد اتجاهه معاملا إياه بضروب من الجفاء، ومع ذلك حظي بمكانة هامة لديه، بحيث كف الخليفة بتدخل منه عن إقامة الحد على القاضي أبو عبد الله محمد بنم الحيل الهمداني لما شاع عنه شرب الخمر<sup>82</sup> . كما كان جريئا، بحيث وقف في وجهه مساندا ابن رشد في محنته مدافعا عنه<sup>83</sup> . بل وأعلن الأخذ بعلم ابن رشد وقراءته<sup>84</sup> . الأمر الذي أدى بالخليفة المنصور إبعاده عن القضاء، ونفيه إلى أغمات، بل وكتب في أمره وابن رشد إلى سائر بلاده<sup>85</sup> . كان جفاء الخليفة وعدم الاكتراث به من العوامل التي عرضته للعن من طرف الناس والبصاق في وجهه<sup>86</sup> . وعفي عنه ورد لقضاء بجاية للمرة الأخيرة في عهد الناصر، ولم تعطينا المصادر متى كان ذلك بالتحديد، ولم يقبل المنصب إلا ردا للاعتبار، ويفهم ذلك من قوله: "والله ما تقلد بها رغبة فيها ولا تغييظا بها ولكن تسجيلا على مقلدها أي بيحيق التناقض الذي لا يصدر عن له مسكة عقل في تولية القضاء والفصل في الأحكام الشرعية بين الناس من صحت عنده زندقته واشتغال بعلوم الأوائل<sup>87</sup> .  
الخلاصة:

- اعتبر المغرب الأوسط القاعدة التي بدأ فيها المهدي بن تومرت دعوته، ومنه انطلق معولا على رجال الإقليم في تحقيق مشروعه المذهبي والسياسي.
- فرض أول خليفة عبد المؤمن بن علي بشدة تعليم التوحيد متبعا في ذلك ابن تومرت على المغرب الإسلامي، وفي هذا الأمر خصص رسالة لأهل بجاية تسمى رسالة الفصول، ملزمهم فيها بعلم التوحيد.
- تتضح مواقف فقهاء المغرب الأوسط اتجاه مذهب السلطة مع ثالث خليفة أبو يوسف يعقوب المنصور الذي تحول إلى المذهب الظاهري، وفي عهده انقسم فقهاء الإقليم بين مؤيد ومعارض نتيجة الغزو الميورقي للإقليم.
- ظهر جليا أن العلماء المواليون كانوا أكثر عددا من المعارضين، ومن المهم أن ندرك أن الموالية لم تكن فرضا من السلطة بقدر ما كان نتيجة لالتقاء فقهاء المالكية وشيوخ الإباضية في علم الكلام، والمذهب الظاهري، وبالتالي انتفعت بهم السلطة في إشراكهم في مجالس العلمية للخليفة، وتقليدهم للمناصب كفقهاء وقضاة ومفتيين وخطباء ومعلمين.
- تراوح موقف السلطة لمعارضيتها من الفقهاء بين الشدة واللين، وذلك بحسب الموقف والشخصية.



-ختاما من المهم الإشارة إلى أن فقهاء المغرب الأوسط لا سيما الموالمون هم من أسهموا في صناعة ورقي الحضارة الموحدية وليس السلطنة هي من حضرتهم.

الهوامش:

- 1-المهدي بن تومرت، أعز ما يطلب، تح وتق عمار الطالب، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص 396  
نفسه، ص 45-158
- 2- المهدي بن تومرت، المصدر السابق ، ص702
- 3- ابن الأحمر، بيوتات فاس الكبرى، نشر عبد الوهاب منصور، دار المنصور، الرباط، 1972، ص19.
- 4 - الونشريسي، المعيار، إشراف محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000، ج2، ص46.  
استبعدت بعض الدراسات ظاهرية ابن تومرت، إذ لم يكن بصرامة ابن حزم في المطالبة بترك القياس، هويتي \*  
مريندا المرجع السابق، ص37. وما جاء به موالى للمريين فهو تبرير منه لقيام الدولة المرينية، عبد الحق الطاهري، ابن تومرت  
والمذهب المالكي، "دعوة الحق"، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، المملكة المغربية، س50، ع391، 2009، ص92
- ابن الأحمر، المصدر السابق، ص19 5  
هو علم يتضمن الحجج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية، والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن \*  
مذهب السلف وأهل السنة، وسر هذه العقائد الإيمانية هو التوحيد. ابن خلدون، المصدر السابق، ج1، ص350
- 6- المهدي بن تومرت، المصدر السابق، ص272
- 7- علي أومليل، السلطة الثقافية والسلطة الدينية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط2، 1998، ص213.
- 8- المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الأندلس للطباعة والنشر، بيروت، 1966، ج3، ص34
- 9- أومليل، المرجع السابق، ص210
- 10- أومليل، المرجع السابق، ص218
- 11- أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية المصرية، دت، ج2، ص232.
- 12- البيدق، أخبار المهدي بن تومرت، تح عبد الحميد حاجيات، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986،  
ص32.
- 13- ابن القطان، نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تح محمود علي مكي، دار الغرب الإسلامي، ط1،  
1990، ص77.
- 14- البيدق، المصدر السابق، ص37
- 15- نفسه ، ص38

- 16- البيدق، المصدر السابق، ص38
- 17- نفسه، ص77
- 18- أنيس المطرب بروض القرطاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972، ص217
- 19- *BOUROUBA Rachid, L'Art Musulmam en Algerie, les presses de la societe societe nationale et Diffusion ; Alger, 1972, p35*
- 20- عبد اللطيف العادلي، العلماء والمعلمون ودورهم التربوي والتعليمي في المجتمع الحضري خلال عصر الموحدين، أطروحة دكتوراه مرقونة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة فاس، سايس، 2007-2008، ص71
- 21- ابن القطان، المصدر السابق، ص179
- 22- مجهول، الحلل، ص150
- 23- مجهول، الحلل، ص150. ابن القطان، المصدر السابق، ص173
- 24- حاجيات وآخرون، المرجع السابق، ص324
- 25- مجهول، الحلل، ص151
- 26- رسائل موحديّة، مجموعة بروفنسال، ص130-131
- 27- نفسه، ص131
- 28- القاضي عياض، ترتيب المدارك، تح أحمد بكير محمود، دار مكتبة الحياة، بيروت، دار مكتبة الفكر، طرابلس، دت، ج4، ص606.
- 29- عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص198
- 30- روض القرطاس، ص195
- 31- البرزلي، جامع مسائل الأحكام، تح محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط، ج6، ص376
- 32- محمد المنوني، حضارة الموحدين، دار تويقال، الدار البيضاء، ط1، 1989، ص38
- 33- عبد المجيد النجار، المهدي بن تومرت، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1403-1983، ص488
- 34- نفسه، ص198
- 35- نفسه، ص19
- 36- نفسه، ص197
- 37- وترجع إحدى الدراسات أن سبب القيام بالانقلاب في الإستراتيجية الثقافية والمذهبية بشكل خاص من قبل المنصور إلى أنه لم يكن مرضيا كخليفة من طرف إخوته وعمومته، إذ لم يرونه أهلا لذلك عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص188. لهذا أقام لنفسه قبيلة وجندا آخرون يعول عليهم كاسرا شوكة أهل الرأي والفقهاء في الدولة مقلصا سلطتهم، وهم طلبة سميوا "بالصالحين والمتبتلين". محمد عابد الجابري، المرجع السابق، ص57.
- 38- البرزلي، المصدر السابق، ج6، ص377
- 39 - يحيى بوعزيز، مركز بجاية الحضاري ودوره في إثراء الحضارة العربية الإسلامية وفي نهضة إيطاليا وجنوب غرب أوروبا " مجلة الحضارة الإسلامية"، عدد خاص حول المراكز الثقافية في المغرب الإسلامي، وهران، س1، ع1، 1993، ص7.

- 40- هو علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية، والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذهب السلف وأهل السنة، وسر هذه العقائد الإيمانية هو التوحيد. ابن خلدون، المصدر السابق، ص 350 .
- 41 - الغبريني، عنوان الدراية، تح رابع بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر. 1970، ص 67
- نفسه، ص 67-68 42
- الغبريني، المصدر السابق، ص 66-67 43
- 44- نفسه، ص 188-189
- 45- ابن سعيد المغربي، الغصون الياض في محاسن شعراء المائة السابعة، تح إبراهيم الأبياري، دار المعارف، مصر، د ت، ص 30.
- 46- ابن الزبير، صلة الصلة، مكتبة الخياط، بيروت، بلا ت، ص 505
- 47- ابن سعيد، المصدر السابق، ص 30
- 48- ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق، ص 341
- 49- ابن سعيد المغربي، المصدر السابق، ص 31
- 50- الغبريني، المصدر السابق، ص 189
- 51- نفسه، ص 189
- 52- الجاحظ، البيان والتبيين، دار الفكر للجمع، 1968، ج 1، ص 170
- 53- الغبريني، المصدر السابق، ص 189
- 54- ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق، ص 271
- هو علم جليل في معرفة مآخذ الأئمة وأدلتهم " أي المناظرة بين فقه الأئمة الأربعة، والخلوص باتفاق أو اختلاف بينهم في \* كل موضوع فقهي. ابن خلدون، المصدر السابق، ج 1، ص 349
- 55- الغبريني، المصدر السابق، ص 186
- 56- نفسه، ص 271
- 57- له دراية بعلم القرآن وعلم اللسان، كما له يد في الحديث والأخبار والسير والأثر وعلم الكلام، وعلم الفرائض والمواريث من " العدل والإنصاف " وهو في أصول العقائد. الدرجيني، طبقات المشائخ بالمغرب، تح إبراهيم طلاي، مطبعة البعث، قسنطينة، 1974، ج 2، ص 492-495 .
- 58- لفيتسكي تاديوس، المؤرخون الإباضيون في إفريقيا الشمالية، ترجمة ماهر جرار، ريماء جرار، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، 2000، ص 79.
- 59- الدرجيني، المصدر السابق، ج 2، ص 485-488
- 60- الدرجيني، المصدر السابق، ج 2
- 61- علي بن معمر، الإباضية في الجزائر، مطبعة الدعوة الإسلامية، القاهرة ط 1، 1979، ص 254-282
- 62- الدرجيني، المصدر السابق، ج 2، ص 327.

- 63- رسائل موحدية، تح أحمد عزاوي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، القنيطرة، 1995، ج2، ص73.
- 64- عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط1، 2007، .  
ص331.
- 65
- ترجم له ابن الزبير، صلة الصلة، ص 5. وابن فرحون، الديقاج المذهب، تح مأمون بن محيي الدين الجنان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1417-1996، ص 277-278
- ابن الزبير، المصدر السابق، ص 5. 66
- 67- يرجع سبب استيائه للأعمال الوحشية الذي قام بها الجيش الموحدية أثناء فتحه للبلدة موطنه الأصلي سنة 549هـ، فأتى على جميع من بها، فكانت هذه الفتنة سبب هجرته من موطنه إلى بجاية، وميله إلى المرابطين الذين كانوا يقدرون العلماء . رابح بونار، عبد الحق الإشبيلي البجائي، "الأصالة"، عدد خاص ببجاية، ص260-261 .
- 68- عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص 193
- 69- هو يحيى بن عمارة الشريف الحسني، من أهل ق6هـ/12م، له معرفة بعلم العربية والأدب، كما له تأليف في علم الفرائض، واستقصى بعض نواحي بجاية. الغبريني، المصدر السابق، ص76 .
- 70- نفسه، ص 193
- 71- نفسه، ص 193
- 72- نفسه، ص 193
- 73- المغراوي، المرجع السابق، ص103
- 74- الغبريني، المصدر السابق، ص149
- كانت له تأليف في مختلف التصنيف في المعقولات والمنطق ضمن تصنيفه بهذا الخصوص "المعقولات الأول"\*  
وكان أعلم الناس في الطبيعيات والإلهيات وأعلمهم بعلم الفقه منقوله ومعقوله، وله تصنيف في علم الفرائض أسماه "الوافي" وتفيد شهادة الغبريني أنه لم ير أحسن تأليف منه في هذا المجال، كما كان له تقدم وعلو سند في الحديث، وله شعر فائق في الغزل والتصوف، وعلى معرفة باللغة العربية أدبا ونحوا، وبالجملة له تصانيف في جل العلوم الذي كان فيها على كفاية ودراية. نفسه، ص146-148.
- 75- نفسه، ص 17
- 76- نزل بجاية بعد سنة 550هـ/1156م وتخيرها وطنا. نفسه، ص73-74
- \* هو رئيس الطائفة يتولى النظر في أحوالهم. القلقشندي، الصبح الأعشى، ج5، ص137. ويمثل الوساطة هو بين مجموع قبيلته والسلطة. وسلطته معنوية. أحمد العزاوي، المرجع السابق، ص234. هويكنز، المرجع السابق، ص171-175
- 77- الغبريني، المصدر السابق، ص 74
- 78- نفسه، ص 74

\* كتاب لأبي عبد الله بن زرقون الأندلسي، جمع فيه المنتقى لأبي الوليد الباجي، والاستذكار لابن عبد البر، وتمم فيه ما رأى تميمه واستدرك ما اقتضى نظره استدراكه، ونبه على مواضع يجب التنبيه عليها، ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق، الهامش رقم 515، ص318. وللإشارة ألف محمد بن عبد الحق التلمساني لاحقاً كتاب شبيه به أسماه "المختار في الجمع بين المنتقى والاستذكار" جمع فيه الكتابين السابقين الاستذكار لمذاهب علماء الأمصار فيما تضمنه موطأ مالك من معاني الرأي والآثار" لابن عبد البر، شرح فيه الموطأ على وجهه ونسق أبوابه. ابن بشكوال، كتاب الصلاة، تح السيد عزت العطار، بلاد، 1955، ج2، ص641، وبين المنتقى لأبي الوليد الباجي ويدور محتواه حول المذهب المالكي. ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق، ص319.

79- الغبريني، المصدر السابق، ص225

80- نفسه، ص217

81- نفسه، ج2، ص185. ابن الأبار، المصدر السابق، ج2، ص6.

82- ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق، ص340

83- الغبريني، المصدر السابق، ص185.

84- نفسه، ص272

85- نفسه، ص186-187

86- ابن عبد الملك المراكشي، المصدر السابق، ص271

87- نفسه، ص272